

● القرآن وحرية المجتمع.. إشكاليات الواقع المعاصر*

■ ■ الشيخ محمد حسن الحبيب**

تمهيد:

قديمًا ارتبطت الحرية كمنهج فردي بأهل العلم والفكر والمعرفة الذين وجدوا في أنفسهم القدرة على ممارسة التفكير والإبداع والنقد بتحرر بعيداً عن القيود، وقادهم ذلك إلى نشر ما توصلوا إليه، وفي كثير من الأحيان التضحية ومجابهة العقبات التي تحول دون وصوله. ومع ذلك فقد تأخر ظهور مشروع الحرية في المجتمع وتطبيقه فكرياً وسياسياً على الحياة العامة، فالفلاسفة وأهل الفكر والثقافة والنظر الذين وضعوا كل شيء موضع النقد البتأ والمناقشة الحرة وعملوا بمبدأ الحرية في عرض أفكارهم وإيصالها إلى الناس، انسجم البعض منهم مع الواقع القائم على الاستبداد والدكتاتورية بل ربما صار التعايش من أبرز صفاتهم وسماتهم، ففي الوقت الذي يجتهد ويجاهد لإبراز رأيه ونشره بل ربما يثور دفاعاً عن حرية الرأي تراه في الوقت ذاته مؤيداً لأنظمة الاستبداد وربما منظرًا لها.

ومحور هذه الورقة يناقش الحرية من الزاوية الاجتماعية في القرآن الكريم، مع ملاحظة الإشكاليات المترتبة على واقعنا المعاصر والتي قد تحول دون الأخذ بتلك المفاهيم

* ورقة مقدمة لمؤتمر (القرآن الكريم) في دورته الثالثة، تحت شعار (الحرية في القرآن وإشكاليات الواقع المعاصر)، نظمه (ملتقى القرآن الكريم) - شرق السعودية، عقد في مدينة سيهات، في ١٦/١٧ رمضان لعام ١٤٢٦هـ.

** عالم دين، كاتب وباحث، أستاذ الدراسات العليا في حوزة القوائم العلمية، السعودية.

أو عرقلة تطبيقها.

وقبل الدخول في موضوع البحث تجدر الإشارة إلى ورود أصل كلمة الحرية أو مفهومها في القرآن الكريم.

لم ترد كلمة (الحرية) في الكتاب العزيز، ولكن كلمات أخرى قريبة منها ككلمة (تحرير، محرراً، الحر) قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً ﴾^(١).
وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ... ﴾^(٣).
وبالرغم من أن لفظة الحرية لم ترد في كتاب الله العزيز إلا أن آياته حملت دلالات ومعاني الحرية بأطرافها المختلفة، ومنها على سبيل المثال ما ورد من الآيات الكثيرة التي تتحدث عن مفهوم الطاعة وتحرير الإنسان من سلطة الأهواء والشهوات والشيطان والآباء والطاغوت.

قال تعالى في مقام ذم طاعة قوم فرعون له: ﴿ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾^(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَصَلْنَا السَّبِيلَ ﴾^(٦).
وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾^(٧).

وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(٨).

وقال تعالى في النهي عن طاعة الكفار: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) سورة النساء، الآية ٩٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٧٨.

(٤) سورة الزخرف، الآية ٥٤.

(٥) سورة الأنعام، الآية ١٢١.

(٦) سورة الأحزاب، الآية ٦٧.

(٧) سورة الأنعام، الآية ١١٦.

(٨) سورة العنكبوت، الآية ٨.

يُرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١﴾.

هذه الآيات وغيرها كثير توضح مجموعة من الحقائق:

- ١- أن الإنسان محاط بمكبلات كثيرة تسلبه حريته وتوقعه في رقِّ العبودية لها، وقد بينها القرآن الكريم من خلال آياته في مناسبات عديدة، وأمر بكسرها.
- ٢- وكسر هذه القيود والاعتناق من أسرها يحتاج إلى الارتباط بالله سبحانه وتعالى والتقيد بمنهاجه.
- ٣- وحينها يحصل الإنسان على الحرية الحقيقية، والقيود التي يقيد بها من خلال إيمانه لا تسلبه حق الاختيار ولكنها تحمله تبعات اختياره.
- ٤- ومن حقائقها المهمة أنها حق بلحاظ إنسانية الإنسان، وواجب بلحاظ المحاسبة.

ركائز حرية المجتمع

أولاً: التساوي بين البشر:

ينظم القرآن الكريم العلاقة بين بني البشر على أساس التساوي في عبوديتهم لله فلا يحق لأحد منهم أن يسود غيره إلا بإذن الله، كما لا يجوز لأحد الخضوع والطاعة والتسليم إلا لله وحده أو لمن يأذن الله في أتباعه.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُعَفِّرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنشُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاقْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾.

والاختيار أخيراً بيد الإنسان نفسه. قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ حَسَبُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَّا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿٣﴾.

قال سماحة السيد المرجع المدرسي دام ظله: إن بصيرة وحدة البشر في أصل الخلقة ركيزة أساسية في النظام المعرفي والثقافي والتشريعي للدين الحنيف، فهي تصبغ أحكام الإسلام بصبغة التوحيد، الذي يتضاد أساساً مع كل لون من ألوان الشرك؛ ينفي استعباد الناس بعضهم لبعض باسم الدين أو باسم العنصرية أو القومية أو الطبقية، كما ينفي تسلط

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ١٠ - ١١.

(٣) سورة الزمر، الآية ١٤ - ١٥.

الناس بعضهم على بعضهم بقوة النار والحديد أو بجاذبية الثروة أو حتى باسم التقدم العلمي. وهكذا ينفي التمايز بين الناس بالدم أو بالولادة في أرض أو بالسكن في منطقة أو بالانتساب إلى مبدأ أو ما أشبهه، اللهم إلا بالتقوى (الإيمان والعمل الصالح) (١). ومع انتفاء هذه الركيزة أو حين يشوبها التشويش أو الغموض في الذهن أو على أرض الواقع فإن القيود الذاتية أو النابعة من سلطة الآخرين ستؤثر في قدرة الإنسان على الاختيار بإرادة مطلقة في الفعل أو الترك وربما أثر ذلك أيضاً على ما يدور في فكر الإنسان. فالتعاطي مع أي نوع من أنواع السلطة سياسية، اقتصادية، اجتماعية، أم غيرها.. بل وحتى سلطة التاريخ والرأي العام إذا كان نابعاً من التفاضل غير المشروع يُعد تقييداً للحرية وإبعادها عن الواقع الاجتماعي، وهذا ينشئ مجتمعاً متقاعساً ليس له فاعلية في الحياة. وربما تلقى تبعة هذه على السلطة السياسية فممارساتها قد توصل مجتمعاتها ليس إلى عدم الفاعلية فحسب بل إلى الموت أحياناً! وهذا صحيح إلا أنه لا يعفي الإنسان من هذه التبعات فهو المعني أولاً وبالذات، ولذا خاطب أمير المؤمنين : الإنسان بقوله: «لَا تُكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرّاً» (٢).

ثانياً: المسؤولية والتكليف:

مبدأ التساوي بين البشر وعدم استعلاء بعضهم على البعض الآخر يفترض مسؤولية عامة تقع على عاتق الجميع والمسؤولية بهذا المعنى ترتبط بأمرين:

١- الأمانة التي عرضت على الإنسان فحملها. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٣).

٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤).

وواضح أن جميع الفضائل بما فيها (الحرية) تجمعها كلمة المعروف كما أن جميع الرذائل تجمعها كلمة المنكر فالمعروف هو المعروف بين الناس والمنكر هو ما أنكره الناس أيضاً، وفي هذه الآية تقرير لولاية المؤمن على أخيه المؤمن فيما يرتبط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال بعض الفقهاء.

وهنا ينبغي أن نتساءل عن حدود هذه المسؤولية وأفاق حرية الإنسان فيها؟

(١) التشريع الإسلامي، ج٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص٩٣.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

(٤) سورة التوبة، الآية ٧١.

أولاً وقبل كل شيء ينبغي أن نعرف أن حرية الإنسان إنما هي من الجانب التكويني وليست التشريعي، فهو من الناحية التشريعية مكلف يجب عليه القيام بما هو مكلف به، وهذا الأمر ليس مرتبطاً بالإسلام فحسب وإنما في كل الديانات والشرائع بما فيها الشرائع التي أخذت الحريات مجالاً واسعاً في واقعها العملي.

وكمثال على ذلك فقد وقرّ الله للإنسان فرصة الاختيار، ومنحه القدرة على التشخيص والاختيار ولكنه فرض عليه اختيار الحق وتطبيقه، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾^(١).

ثالثاً: الشورى:

المجتمع الذي تكون المسؤولية حاضرة بين أبنائه هم أشد الناس حاجة إلى قنوات تجمعهم للتشاور، والتنسيق، والتوافق على العقود المرتبطة بإدارة المجتمع وأبنائه، والمؤسسات الحيوية والفاعلة فيه.

١- الشورى تستبطن اعترافاً متبادلاً بين أبناء المجتمع على أنهم شركاء في مجتمعهم خيره وشره، ولا يحق لأحد الاستئثار بتسيير الأمور فيه أو الاستئثار بخيراته.

٢- تعزز المسؤولية في النفوس وتزيدها حيوية. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٢).

٣- المجتمع الحي هو من يبحث أبنائه عن الأحسن فيختارونه. قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَحُذِّهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا حُدُوًّا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣).

إشكاليات الواقع المعاصر:

مما سبق يتضح لنا أن واقع مجتمعاتنا المعاصرة بعيد عن الحرية. ويمكن لنا تلخيص أهم الإشكالات بأمريين:

١- ضعف ثقافة الحرية في الواقع الاجتماعي، وربما تصل إلى حدودها الدنيا بحيث يمكن توصيفها بالانعدام.

٢- شيوع حالة الاستبداد في أغلب مؤسسات المجتمع (الأسرة، المدرسة، المسجد، الحسينية، اللجان الأهلية، السلطة السياسية).

(١) سورة الكهف، الآية ٢٩.

(٢) سورة الشورى، الآية ٣٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٤٥.